مكانة العلماء الاجتماعية في العهود الإسلامية المبكرة

بقلم: د. صالح أحمد العلي (رحمه الله)

سمات الحركة الفكرية:

الحركة الفكرية هي النشاط العقلي للإنسان، وإعمال العقل لإدراك ماهية المعرفة وطبيعتها ودورها في سلوك الإنسان وتصرفاته وعلاقاته مع أفراد المجتمع. وهي تقوم، لإدراك ذلك، على استعمال الحواس وعلى إعمال الفكر والتأمل في ماهيتها، وفي استنباط تعليلات متصورة. ونقطة الانطلاق فيها استعمال الفرد حواسه للمشاهدة وعقله للإدراك والتعبير؛ فهي تقوم في الأساس على خبرات الفرد المستمدة من محيطه، وتعكس أحواله المادية، وترفعه إلى ما يوصل خياله وفكره من مستويات تتباين تبعًا لدقة الملاحظة وسعة التصور وعمق التفكير، دون أن تشترط نشاطًا بدنيًا أو ترفًا في المعاش.

وغالبية الناس لا يعيشون متفردين معتزلين، وإنما يحيون في مجتمعات تتباين في حجمها ومدى استقرارها وأثرها في خبرات أفرادها منذ المراحل الأولى من عمرهم، ثم تتطور في مقدارها وتوجهاتها تبعًا للأحوال التي يمرّون بها ومدى إدراكهم لها. فعماد الحركة الفكرية قائم على الأفراد المعنيين بها، ومدى استخدامهم حواسهم في رصد ما يعنون به وإدراكه والتفكير فيه، لفهم طبيعته المادية والمعنوية.

تتباين مستويات المعنيين بالفكر تبعًا لعمق إدراكهم وسعة أفقهم ومدى اهتمامهم بتوسيع مصادر معرفتهم ونشر علمهم بين الناس؛ فبعضهم يعيش في برج عاجي منعزلاً عن الناس، فيحصر علمه في نفسه ويكون إسهامه ضيّقًا وأثره محدودًا، أو قد يوسّع اتصاله بمن حوله في مكان إقامته، أو قد يرحل مؤقتًا أو دائمًا، فيوسّع نطاق اتصاله، ويكون أثره تبعًا لمدى هذا الاتصال المباشر أو غير المباشر. وللتدوين أثر كبير في نشر الأفكار وتخليدها بين المعاصرين أو الأجيال التالية.

إنّ المراحل الأولى للمعرفة هي إدراك المحسوسات البصرية والسمعية، ولكنها لا تقتصر عليها، وإنما تمتد إلى ميادين أوسع من الإلهام والوحي مما لا يقوم على مجرد الحواس. وقد أشار القرآن الكريم إليهما، فذكر الإلهام في آية، من أكثرها تعبيرًا ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (الشمس٨)، وذكر الوحي في ثمانين آية منها اثنتان تذكر أنّ الشياطين توحي (الأنعام١١٢، ١٢١). أما بقية الآيات فيذكر بعضها أنّ الوحي من الله تعالى إلى السماء (فصّلت ١٢) والملائكة (الأنفال ١٢) والأرض (الزلزلة ٩) والنمل (النمل ٦٨) والحواريين (المائدة ١١١) ولكن أغلبية الآيات تذكر أنّ الوحي للأنبياء والرسل، وأنه الأسلوب الوحيد الذي يتصل به الله تعالى بالبشر: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ (الشورى ٥١) و﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ (آل عمران ٤٤، يوسف ١٠٢، هود ٤٩).

فقد ذكر القرآن الكريم "العلم" في سبع وثمانين آية، و﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ في عشر آيات، كما ذكر "أُولُواْ الْعِلْمِ" (آل عمران ١٨) و"الرَّاسِخُونَ في الْعِلْمِ" (النساء ١٦٢).

تنحصر الحركة الفكرية بالنخبة من أهل العلم بمختلف مسمياتهم، وأصول معظمهم من جمهور العامة. [لكن أهل العلم نخبة خاصة ويعبّرون عن علمهم وبيئتهم الثقافية التي قد لا تشمل أحوال العلية من الحكام والمترفين أو العامة، فعلومهم تعبّر في الغالب عن أحوال شريحة في المجتمع].

يطلق في العربية على المهتمين بالفكر "أهل العلم"، وهو يقابل من نسمّيهم اليوم "المثقّفون". وقد ورد هذا التعبير في القرآن الكريم في آيه، وقريب منه "أهل الذكر"، وهم يتميزون عن العلماء الذين وإن كانت أصولهم من "أهل العلم" إلاّ أنهم يكونون متبحرين في جانب أو جوانب محدودة من الفكر، وعملهم ليس مجرد المعرفة ونشرها وإنما كذلك الإسهام في تقدمها وتوسعها.

إنّ "أهل العلم" أشخاص لهم معرفة أو حكم قائم على التأمل والمعرفة المستمدان بالدرجة الأولى من الإدراك الحسي، وكثيرًا ما ترتبط بهم التطورات الأخلاقية والجمالية مما لها جذور أخرى، وقد لا تكون المعرفة منتجة، وتراكمها ليس السمة المتفردة لأهل العلم الذين ينبغي أن تكون لهم سمات قيادية وتوجيهية، وبخاصة في ميدان الفكر والسياسة. ويعتمد نشاطهم على مقدراتهم الذاتية بصرف النظر عن أصولهم العرقية أو منازلهم الاجتماعية.

ومعظم أهل العلم ليسوا علماء يقومون بالبحث والتدريس، ولكنهم يتميزون بأهم منغمرون في الفكر ولهم دور في الحياة، والغالب أنهم يدافعون عن حرية الفكر وينقدون النظم والأوضاع القائمة، ويدعون بدرجات متفاوتة إلى تبديلها بما ينسجم مع تفكيرهم، وكثيرًا ما يطّلعون على الأفكار المخالفة لأفكارهم، ولكنهم في الغالب لا يرتضونها. وأغلبهم من أصول شعبية بعيدة عن الحكام، وكثيرًا ما يختلفون مع بعضهم، وقليل منهم ثوريون، وأغلبهم "محافظون" أو "رجعيون" ويتابعون طموحات الجماهير. والغالب أنهم يعبّرون عما يشغل تفكير الجماهير، ويتميزون بسعة الاطلاع والاهتمام بالتعبير عن آرائهم، وانشغالهم بالأفكار أكثر من غيرهم[١].

حرية التعليم

كان التعليم حرًّا عامًّا طليقًا من القيود المعرقلة، فلم تكن فيه أجور يدفعها الطالب، وقد رُويت أحاديث وأقوال تنهى العلماء عن أخذ أجر على تعليم علمهم، وكان عدد قليل جدًّا منهم من المحظوظين المتصلين بالخلفاء والولاة وأصحاب السلطان والجاه وبخاصة العدد القليل من الأطباء والمؤدبين والمنجمين ممن يحصلون على هبات وجزايات من الخلفاء، كما أنّ الدواوين والقضاة لا تستخدم إلاّ عددًا محدودًا لهم رواتب غير كبيرة، فرواتب كتّاب الدواوين حدها الأدنى أربعمائة درهم في السنة[٢] وهو يؤمّن الحد الأدنى لمطالب الحياة؛ والواقع أنّ معظم أهل العلم كانوا يعتمدون في معاشهم على الحِرَف التي يمتهنونها، أو على ما ورثوه من ثروات، وهي مقادير محددة، وقد رُويت أخبار كثيرة عن عوز كثير من العلماء وفاقتهم والعسر الذي لاقوه في حياتهم المعاشية[٣].

يسّرت الدولة في صدر الإسلام لطلبة العلم ورجاله من العرب خاصة تأمين معاشهم بما كانت توزعه من رزق شهريّ، وعطاء سنويّ حدّه الأدنى مئتا درهم في السنة، وحدّه الأعلى ألفا درهم في العراق والمدينة والمشرق، وما يعادله من الدنانير في الشام ومصر وبلاد المغرب. ومع أنهم كانوا يأخذون هذا الرزق والعطاء عن خدمتهم في الجيش وليس عن عملهم في العلم، إلا أنّ قِصَر المدة المطلوب منهم قضاءها في البعوث، وهي لا تتجاوز أربعة أشهر كل ثلاث سنوات[٤]، يسّرت لهم وقت فراغ واسعًا مؤمّن فيها معاشهم، وأتاح لهم مجال الاهتمام بالفكر والاستزادة من المعرفة.

حِرَف أهل العلم وحياتهم المعاشية:

اعتمد بعض طلبة العلم وأهله في حياتهم المعاشية على ما تقدّمه أسرهم من المعونات المالية، وهي تختلف تبعًا لثرواتها ومدى استعدادها لإمداد أبنائها من أهل العلم. ولا ريب في أنّ للمقيمين مع أُسَرهم فرصًا أوسع في الإفادة وبخاصة من الطعام والمسكن والملبس، ويتوقف مقدارها على ثرواتهم ومشاعرهم تجاه أبنائهم.

لا يشترط في أهل العلم التفرغ له أو الاشتغال بحرفة معيّنة [عند عملهم بالعلم]، وأكثرهم يعتمد في معيشته على مواردهم مما يمتهنونه من الحِرَف. وذكرتْ كُتُب التراجم كِنى عدد من أهل العلم ونسبتْ كثيرًا منهم إلى الحِرَف وبخاصة البزازين والقزازين والتمارين. ولم يعرف من كان منهم يمتهن المهن المحتقرة، كالحياكة والحجامة، ولم يرد ذِكر لمن نسب إلى التجارة من أولاد الوزراء وكبار الكتّاب والتجار مما قد يرد على قلة إقبال أولادهم على العلم.

وفي الكتب ذِكر لعدد من الأُسَر ظهر في كل منها أكثر من واحد معنيّ بالعلم والاشتغال به، ولكنهم كانوا قلة تقرب من الندرة من الأبناء الذين تابعوا آباءهم في الاشتغال بالعلم. في العهود الأولى قليل جدًّا من الأُسَر التي كثر منها المشتغلون بالعلم، أو أنّ أبناءهم وأحفادهم تابعوا الاشتغال بالعلوم البحتة والتطبيقية بما فيها الحساب والهندسة والطب والصيدلة مما له صلة بحياة الناس... أما الدراسات النظرية فتنحصر بعدد محدود من الباحثين وتقوم على أفكار لا يستوعبها غير العلماء. وهذا الاشتغال بالعلم لم يتطابق مع الوراثة البيولوجية، ولم ينحصر بأُسَر أو فئات محددة تعمل فيه وتتوارثه، وإنما كان مرنًا في تطوره.

السـنّ

لا يحدد تلقّي العلم بسنّ معيّنة، فقد يتلقى الفرد العلم وهو في سنّ مبكرة لرغبة ذاتية، وقد يتأخر إلى سنّ متقدمة؛ ولعل الأغلبية تقبل على تلقّي العلم في أوائل سنّ الرجولة، وقد يتابعون إقبالهم إلى آخر عمرهم.

ولم يتقيّد تلقّي العلم بقيود من الانتماءات النسبية أو الأصول العرقية والقبلية، ولم تحتكر العلم جماعة معيّنة تحصره فيها؛ فقد روى ابن سعد "ما رأيت حيًّا متعبّدًا أكثر من الثوريين والعرنيين"(٥). وقال: "ما رأيت في الكوفة حيًّا أكثر فقيهًا متعبّدًا من بني ثور، فيهم ثلاثون رجلاً ما فيهم دون الربيع بن خيثم"(٦). ولعل في هذه الأرقام مبالغة، وهما على أي حال تدل على كثرة العلماء من بني ثور والعرنيين.

ذكر البخاري في كتابه **التاريخ** أسماء عدد كبير من أهل الحديث إلى زمنه (١٩٤-٢٥٦هـ)، والكتاب من ثمانية مجلدات ضخمة في كل صفحة أسماء ما لا يقل عن العشرين، ذكر أسماءهم ومدن كثير منهم. وذكر كل من خليفة بن خياط في **الطبقات** والرازي في كتابه **الجرح والتعديل** أسماء عدد كبير منهم.

الموالي والعلم

ذكرت المصادر إقبال الموالي على دراسة علم الحديث، وذكر ابن خلدون في **مقدمته** أنّ حمَلة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم، وذكر النيسابوري أنّ رؤساء أهل الحديث من الموالي في كل البلاد إلاّ الكوفة. وتبنّى هذا الرأي عدد من المحدّثين وأخصّهم أحمد أمين ويوسف خليف.

ويروى أنّ عبدالملك بن مروان رأى سبعة من الموالي كل واحد منهم رئيس العلماء في مدينته، فكان في مكة عطاء بن أبي رباح، وفي اليمن طاووس، وفي مصر يزيد بن أبي حبيب، وفي الشام مكحول، وفي الجزيرة ميمون بن مهران، وفي خراسان الضحاك بن مزاحم، وفي البصرة الحسن البصري.

إنّ الموالي الذين أشارت المصادر إلى إقبالهم على تلقّي العلم جلّهم من غير العرب، ولا بد أنّ من كان منهم في البصرة والكوفة هم من أهل العراق ممن لهم مع العرب صلة وثيقة في النسب واللغة وأسلموا ووالى كثير منهم المقاتلة والأشراف العرب من أهل الكوفة، وأباحت لهم الدولة حرية

الحياة والعمل، ومنها متابعة العلم والاستزادة منه، ومنهم عدد من الأعاجم الأحرار الذين استوطنوا طوعًا هذين المصرين وأسلموا وتعلّموا العربية، كما أنّ فيهم عددًا من المقاتلة وأسرى الحروب الذين وزعوا على العرب ثم أعتقوا وحرروا وأسلموا. وعنى عدد منهم بمتابعة العلم والاستزادة منه. وأشارت المصادر إلى البلاد التي كان ينتمي إليها عدد منهم، ولكن لم تذكر المصادر أصول أكثرهم؛ وفي أي حال، فإنهم تعلّموا العربية واعتنقوا الإسلام وأخلصوا إلى توجيهاته ولم تثر عليهم شبهة في هذا الإخلاص، فكانوا من المتابعين لدراسته، علمًا بأنّ أسسه عربية وتوجهاته إسلامية لا شبهة فيها؛ لأنّ المنحرفين عن ذلك كانوا يرصدون ولا يدخلهم النقاد ضمن العلماء، ولا ريب من أنهم أدخلوا بعض أعرافهم التي تؤمّن مصالح العمل دون أن تشوّه السمات العامة. فإقبال الأعاجم على العلم زاده إنماء وسعة، وزاد من سمته العالمية.

ولا بد أنّ عدد الموالي في مصري العراق: الكوفة والبصرة كان كبيرًا لصلة هذين المصرين المكانية بهما. أما في المدينة ومكة فكان عدد المحررين من أسرى المعارك أوسع، والمهاجرة الأحرار أقل، ولكن صارت لهم سيطرة في الصناعات وأعمال السوق أثار عليهم مشاعر العرب لدرجة أقوى مما حدث في مصري العراق. وفي أي حال، فإنّ هذه المشاعر غير الودية لم تتوجه إلى المشتغلين بالعلم حيث كان إسهامه واسعًا، ووصل بعضهم مستوى عاليًا قدّره الناس ولم يبد استياء منه؛ فالعلم يسبغ على المشاركين فيه تقدير الناس فيكون ذلك دافعًا إضافيًا لإقبالهم على العلم.

ذكرنا أنّ عددًا من الأعاجم أصبحوا رؤساء في العلم، وهي ثمار جهودهم، ولكنهم لم يحتكروا هذه الرئاسة؛ فالمدارس الفقهية منذ صدر الدولة العباسية كان جلّها من العرب، بما فيهم مالك بن أنس والشافعي وجعفر الصادق، والأتباع البارزين لأبي حنيفة: أبو يوسف، ومحمد بن الحسن الشيباني، وزفر بن الهذيل، والحسن بن زياد اللؤلؤي، قاضي الكوفة.

مكانة أهل العلم

لم يكن للاهتمام بالعلم حدود فاصلة لتقدمه وتوسعه، فالبعض يقتصر على جزء محدود منه ولا يكرس له كل وقته، بينما يندفع البعض في الدراسة وينغمس فيها ويخصص لها جلّ وقته.

وطالبو العلم يختلفون في مدى استيعابهم له من حيث الكمية والتعمق تبعًا لقابلياتهم ورغباتهم ومدى اندفاعهم وما تواجهه من تغيرات. غير أنّ مكانتهم قائمة على مدى سعة علمهم وعمق فهمهم ودقة تعبيرهم، مما يكسبهم مكانة متميزة وتقديرًا. ولكن قلّ من ينغمر في تكتلات اجتماعية أو سياسية ثابتة، ولم تكن لهم تنظيمات رسمية ثابتة تجمعهم وتكتّلهم، فعلاقتهم بغيرهم من العلماء والناس منوّعة مرنة وغير جامدة، وتأثير أصولهم العرقية والعشائرية يتضاءل مع تشربهم العلم.

كانت مواضيع الاهتمام عند العرب في صدر الإسلام واسعة تمتد من الآداب والأمثال والحِكَم وتناقل الكلم الطيّب، ثم الأدب والشعر والتاريخ واللغة بما في ذلك المفردات وأساليب صياغة الجمل، ثم العلوم الدينية.

وكانت أحوال متعددة تجعل أهل كل مصر يعنى بجانب واحد أو جوانب محدودة من المعرفة، فعنيت المدينة بالسيرة والسنن والفقه، وعنيت الكوفة بالشعر والفقه والحديث، والبصرة بقواعد اللغة ومفرداتها وما يتصل بالزهد والتصوف ثم الفلسفة وعلم الكلام، فطغت هذه الجوانب المعرفية على الجوانب الأخرى وإن لم تطمسها.

مراكز التعليم والتصنيف

كان الجامع المركز الرئيس للمثقفين بالعلم، ففي ساحته الواسعة تقوم حلقات الأبحاث والمناقشات دون أن يختص أيّ عالم أو باحث في مكان ثابت فيه، وتتبدد مواضع حلقات الدراسة حول العالم تبعًا للأحوال والظروف، ولا ريب في أنّ أبرز الدراسات فيه هي في المواضيع الدينية والأخبار والأنساب والآداب الوقورة دون المبتذلة.

لم تنحصر الدراسات في الجامع وحده وإنما وجدت مراكز أخرى في كثير من البلدان للعلوم والمعارف، ومن أشهرها المربد في البصرة والكناسة في الكوفة وكل منهما كان في الأصل ساحة واسعة في طرفها الغربي المتصل بالصحراء، حيث يؤمّها البدو بمنتوجاتهم، ويأتيهم المعنيون بثقافة أهل الصحراء للإفادة من معلوماتهم، وتجمعاتها غير ثابتة في مواعيد، وأماكن تجمّع أهل العلم فيها غير محددة.

إنّ مراكز الاشتغال بالعلم تتبع مكان إقامة من يلقي العلم، فقد يكون في داخل بيته أو في الدكة عند باب البيت، ولم يرد ذِكر علم يتلقى في

الأسواق؛ ولعل الأقوال المروية عن ذمّ الأسواق والحياة فيها تشير إلى أنّ الأسواق لم تكن مراكز للعلم.

وفي أيّ حال، فإنّ مراكز تلقّي العلم لم تنحصر في مكان محدد من أية مدينة، وإنما انتشرت في مختلف أرجائها.

زيّ أهل العلم

يذكر مؤلف **سِيَر الملوك** ما عمله أردشير في تصنيف أهل مملكته من طبقة أهل الدين والنسك، وطبقة المقاتلة، وطبقة المزارعين، وطبقة التجار، وحدّ لكل طبقة زيًّا يخالف زيّ الطبقة الأخرى ليعرف كل طبقة بزيّهم ولبسهم(7). ولا بد أنّ ما سنّه أردشير ظل معمولاً به بعده، علمًا بأنّ المصادر لم تذكر هذه الأزياء. وفي العهود الإسلامية الأولى ذكرت المصادر تميّز أزياء الناس؛ ولعل أصول كثير منها أقدم من ذلك. وذكر الجاحظ تنوّع عدد من هذه الأزياء فقال: "للقضاة زيّ، ولأصحاب القضاة زيّ، وللشرطة زيّ، وللكتّاب زيّ، ولكتّاب الجند زيّ، وللخلفاء عِمّة، وللفقهاء عِمّة، وللبقالين عِمّة، وللأعراب عِمّة، وللصوص عِمّة، وللأبناء عِمّة(8).

ووردت إشارات إلى تميّز كتّاب الدواوين بلبس الدراعة والناشية(9)، وكان أول من لبسها منهم عيسى بن [illegible] في زمن أبي جعفر المنصور(10).

أما القضاة فإنّ عريبًا يذكر أنّ محمد بن يوسف عندما ولي قضاء الشرقية وعسكر المهدي خلع عليه دراعه وطيلسانًا وعمامة سوداء(11).

أما أهل العلم فقد وردت إشارات إلى الألبسة التي تميّزوا بها منذ القرن الثاني، فيروي الأصبهاني أنّ أبا حنيفة عندما أراد التوسط عند الوالي "دعا بسواده وطويلته وركب إلى عيسى بن موسى، والي الكوفة"(١٢).

ويروي الأصفهاني أنّ ابن جامع قدم من مكة على الرشيد "وكان يعتمّ بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة، ويلبس لباس الفقهاء، ويركب حمارًا مريسيًّا من زيّ أهل القلانس"(١٣). ويذكر أيضًا "أقبل أبو يوسف القاضي بأصحاب القلانس"(١٤). ويروي حمزة السهمي عن عبدالواسع: أنّ الناس في أوائل زمن العباسيين أخذوا بلبس قلانس سود يقال لها المحمدية لا يدخلون على السلطان إلاّ بها، وكان العلماء إذا أرادوا الدخول على السلطان يحملون معهم قلانسهم، فإذا بلغوا الباب أخرجوها ووضعوها على رؤوسهم ثم دخلوا عليه(١٥). ويروى أنّ مسعر بن كدام قال لرجل: "لو كنت من أصحاب الحديث كنت مقتفيًا وكانت نعلك مخصوفة"(١٦). ويذكر ابن خلكان: "قيل كان يحضر مجلس داوود الظاهري كل يوم أربعمائة صاحب طيلسان أخضر"(١٧).

وذكر الرامهرمزي عن مطرف أنّ مالك بن أنس قال لأمّه أنه يريد أن يذهب ليكتب العلم، فقالت له أمّه: "تعال فالبس ثياب أهل العلم ثم اذهب واكتب". قال: فأخذتني فألبستني ثيابًا مشمرة، ووضعت الطويلة على رأسي وعممتني فوقها، ثم قالت: اذهب الآن فاكتب(١٨).

صلة أهل العلم بالمجتمع وبالحكام

تتباين صلة أهل العلم بالمجتمع والتيارات الفكرية السائدة فيه، فقد تكون محدودة بما تتطلبه الحياة المعاشية، وقد تمتد إلى صلتهم بالجمهور والعلماء وأصحاب السلطان، وتتفاوت علاقة الفرد منهم بأسرته، وأهل بلده، أو بالمشتغلين بالعلم من الطلبة والعلماء. فقد تكون محدودة ورتيبة وبخاصة مع أسرته وأهل السوق.

حظي أهل العلم والعلماء بتقدير عامة الناس واحترامهم، وكان كثير منهم يبدي رأيه جهارًا في الحوادث السياسية وتوجهاتها، ويكون لآرائهم تأثير يختلف مداه في الجماهير خاصة، وقد يثير استياء السلطات الحاكمة.

حاول بعض الخلفاء وأصحاب السلطان استرضاءهم؛ فذكر محمد بن علي الخراساني أنّ المنصور "نظر في العلم وقرأ المذاهب وارتاض في الآراء، ووقف على النحو وكتب الحديث فكثرت في أيامه روايات الناس واتسعت عليهم العلوم". وذكر أنّ المأمون "لزم بمجلسه الفقهاء وأهل المعرفة من الأدباء، وأقدمهم من الأمصار، وأجرى عليهم الأرزاق، وأنّ المتوكل أظهر رواية الحديث"(١٩).

كانت علاقة أهل العلم بالسلطات الحاكمة واسعة ومتشابكة وتمت عنها حديثًا دراسات كثيرة معظمها متأثر بالأحوال السائدة، وهي من حيث العموم معقّدة لافتقاد الإدارة الإسلامية مرجعًا للحُكم في ما يظهر من قضايا؛ مما يؤدي إلى إفساح المجال لتأثير التيارات الفردية المنوعة والمتناقضة أحيانًا.

تستمد السلطة الحاكمة شرعيتها من آيات قرآنية تأمر بأن يطاع أولو الأمر، وأنّ الخليفة يمارس السلطة الفعلية في تنفيذ أوامر الله وهو ﴿...مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٢٠].

هبات الخلفاء وجراياهم لأهل العلم

ذكرت المصادر ما أعطاه بعض الخلفاء لمؤدبي أولادهم؛ فقد وصل المهدي الكسائي بعشرة آلاف درهم، ووصله الرشيد والأمين بمثل هذا المبلغ[٢١]. ووصل المأمون الفراء على تأديب ولده العباس بعشرة آلاف درهم[٢٢]، ومنح المتوكل ابن السكيت على تأديب ولده المعتز خمسين ألف درهم[٢٣]، وأهدى خمسين ألف دينار[٢٤]، وكانت جراية ابن أبي الدنيا خمسة عشر دينارًا يوميًّا على تأديب ولدي المعتمد[٢٥].

وكان الخلفاء وكبار رجال الدولة يجرون على العلماء الأعطيات. وروي أنّ مسلمة بن عبدالملك وصى بثلث تركته للعلماء[٢٦]. وأعطى المنصور مالك بن أنس في دفعة خمسة آلاف دينار[٢٧]، وفي دفعة أخرى ألف دينار[٢٨]. وأعطى المهدي جماعة من المحدّثين منهم عتاب بن إبراهيم عشرة آلاف دينار[٢٩]، وأجرى لمالك بن دينار ثلاثة آلاف دينار[٣٠].

ووصل هارون الرشيد الشافعي بعشرة آلاف درهم[٣١]، ثم بألفي دينار[٣٢]، ثم بخمسة آلاف دينار[٣٣]. ووصل سفيان بن عيينة بمائة ألف دينار، وكان يجري عليه كل شهر عشرة آلاف دينار[٣٤]. ووصل صفي بن وهب بهبات واسعة[٣٥]. ووهب الكسائي عشرة آلاف درهم[٣٦]. وكان يعطي المشتغلين

بجمع القرآن ورواة الحديث بين ألفين وأربعة آلاف درهم[٣٧]. وكان يحيى البرمكي يجري على سفيان الثوري ألف دينار في الشهر[٣٨]. وأمر الأمين للجاحظ بأربعين ألف دينار[٣٩]. وأمر المأمون أن يجري على ابن سهل[٤٠] وعفان بن مسلم[٤١] خمسمائة دينار في الشهر[٤٢]. ووجه إلى عبيدالله الأنصاري بخمسين ألف درهم وأمره أن يقسمها بين الفقهاء في البصرة[٤٣].

كان الواثق يجري على الفقهاء خمسمائة ألف درهم في الشهر[٤٤]. وكان الجاري في عهد المتوكل على أهل الحديث بين ألف وأربعة آلاف درهم[٤٥]. وبلغ مجموع ما صرف لأولاد أحمد حنبل أربعين ألف درهم[٤٦]. وأجرى على علي الهادي أربعة آلاف دينار في السنة[٤٧]، وأجرى له مرتّبًا شهريًّا، ووصله بعشرة آلاف درهم[٤٨]. ووصل علي ابن المديني بعشرة آلاف درهم[٤٩]. وأجرى المعتضد على الزجاج ثلاثمائة دينار في الشهر، وجعل له رزقًا في الفقهاء ورزقًا في العلماء ورزقًا في الندماء[٥٠]. وبلغت صلات ابن الحربي المتصوف عشرة آلاف درهم[٥١]. ووصل المكتفي الطبري بعشرة آلاف درهم[٥٢]. ورزق إسحاق بن إبراهيم القاضي وخليفته يوسف بن يعقوب والداني عمر وأولادهما وعشرة نفر من الفقهاء خمسمائة دينار في الشهر[٥٣].

وأجرى المقتدر للأئمة والقراء والمؤذنين رزقًا[٥٤]. وأجرى للفقهاء بالحضرة في شهر ثلاثة عشر ألف وخمسمائة وسبعين درهمًا[٥٥]. وكان يصرف لهم في الشهر ما بين خمسة دراهم ومئة دينار بحسب منازلهم. ويصرف ابن الفرات على أهل الحديث والمتصوفة وأهل الأدب والفقهاء[٥٦] والشعراء من ماله الخاص لكل فئة عشرين ألف درهم، وأمر للصولي

بعشرة آلاف درهم[٥٧]، وأجرى على ابن دريد اللغوي في كل شهر خمسين دينارًا[٥٨]. ووصل الراضي إسماعيل بن الخطبي بأربعمائة دينار[٥٩]. وروى محمد بن سلمة أنه لقي في زمن المقتدر في ديوان الخراج من رأى جماعة من قراء البصرة يطالبون بأرزاقهم[٦٠].

إنّ القائمة التي أوردناها أعلاه تشمل ما استطعنا جمعه عن هبات الخلفاء، وهي غير كاملة، ولم تدخل فيها الهبات التي كان يهبها الخلفاء لأطبّائهم وللقائمين بنقل كتب الطب والأدوية إلى العربية. وبعض هذه الهبات متفردة، وبعضها جارية يستمر دفعها أمدًا للمقيمين في بغداد وذوي الصلة بها، ولم يمتد إلى من كان في المدن الأخرى، وكان دفعها متتابعًا وليس مجرد هبات مؤقتة. ولم تذكر المصادر متى بدأ دفع هذا الجاري المنتظم الذي كان من حيث العموم يدفع في أزمنة كانت فيه موارد الدولة كبيرة. ولعل هذا الجاري توقّف عندما اضطربت الأحوال السياسية واختل الأمن وتدهور الإعمار ونقصت الموارد.

كان من خصص له الجاري لبروزه في العلم أو قيامه بأعمال تتصل بعلمه كالمؤدبين وعددهم محدود. وكان على بقية من كرّس حياته للعلم أن يعتمدوا في معاشهم على أنفسهم، مما يرثوه أو مما يزوّدهم به أهلوهم أو باحتراف ما لا يعطّل متابعة العلم.

الهوامش:

(١) انظر مادة "المثقفون" (Intellectuals) في دائرة معارف العلوم الاجتماعية.

(٢) **الوزراء والكتّاب**، الجهشياري، ١٧١، ٣١٩.

(٣) انظر: **الفلاكة والمفلوكون** للدلجي؛ **صبر العلماء**، لعبدالفتاح أبو غدة.

(٤) انظر تفاصيل أوفى في كتابنا **الكوفة وأهلها**.

(٥) **الطبقات**، ابن سعد، ١٣٣/٦.

(٦) المصدر نفسه، ٥/٦.

(٧) **سِيَر الملوك**، ١١٩ب.

(٨) **البيان والتبيين**، للجاحظ، ١١٤/٣.

(٩) **الكتّاب والوزراء** للجهشياري، ٢٦٣؛ الطبري، ١٨٤/٣، مسكويه، ٣٧٥/١، ١٥/٢.

(١٠) **الكتّاب والوزراء**، ٢٦١، ٢٦٥. وذكر ابن عمرو بن مهران كان يلبس طيلسان وشاشية، ٢١٨.

(١١) **عريب**، ٢٣.

(١٢) **الأغاني**، ٤١٤/١.   (١٣) نفس المصدر، ٤١٤/١.

(١٤) **الطبقات**، ابن سعد، ٢٣٥/٥.

(١٥) **تاريخ جرجان**، ٢٤٧.

(١٦) **المحدث الفاضل**، ٢٠١.

(١٧) **وفيات الأعيان**، لابن خلكان، ٢٥٦/٢.

(١٨) **المحدث الفاضل**، ٢٠١.

(١٩) **مروج الذهب**، ٢٢٩/٣-٢٣٠.

(٢٠) آل عمران، آية ٢٦.

(٢١) **وفيات الأعيان**، لابن خلكان، ٤٧١/١.

(٢٢) **الفرج بعد الشّدة**، ٢٢/٢.

(٢٣) **معجم الأدباء**، ياقوت الحموي، ١٤٤/٢.

(٢٤) **شذرات الذهب** لابن العماد، ١٠٢/٢.

(٢٥) **الفهرست** لابن النديم، ٢٦٢.

(٢٦) **تجارب الأمم** لمسكويه، ١٢٠/١؛ **مرآة الزمان**: حوادث سنة ١٢٥ عن الواقدي.

(٢٧) **الإمامة والسياسة**، ١٧٦/٢٢.

(٢٨) المصدر نفسه، ١٨/٢٢.

(٢٩) البداية والنهاية لابن كثير، ١٩٣/٧.

(٣٠) عقد الجمان للعيني، ٨٦/١٣.

(٣١) خلاصة الذهب المسبوك، ٢١٢.

(٣٢) شرح مقامات الحريري، ٩١/٤.

(٣٣) سراج الملوك للطرطوشي، ٤٥٣.

(٣٤) البداية والنهاية، ٢٩٠/١٠.

(٣٥) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ٢٨٥.

(٣٦) مقاتل الطالبيين للأصبهاني، ٢٨٠.

(٣٧) الإمامة والسياسة، ١٨٨/٢.

(٣٨) معجم الأدباء، ٦/٢.

(٣٩) التاج في أخلاق الملوك، ٢٧.

(٤٠) المحاسن والمساوئ للبيهقي، ١٢.

(٤١) البداية والنهاية لابن كثير، ٢٩٠/١٠.

(٤٢) معجم الأدباء، ١١٩/٧.

(٤٣) البداية والنهاية لابن كثير، ٢٩٠/١٠.

(٤٤) معجم الأدباء، ٣٩/٧.

(٤٥) سيرة أحمد بن حنبل، ١١٨.

(٤٦) سيرة أحمد بن حنبل، ١١٨؛ البداية والنهاية، ١٣٩/١٠.

(٤٧) معجم الأدباء، ١٠٣/٦؛ مرآة الجنان، ١٣٩/١.

(٤٨) البداية والنهاية، ١٥/١١.

(٤٩) المنتظم، ٥/٦.

(٥٠) الفهرست، ٩٠.

(٥١) المنتظم، ٥/٦.

(٥٢) نفس المصدر.

(٥٣) الوزراء، للصابي، ٢٦.

(٥٤) الكامل، لابن الأثير، ١٤١/٦.

(٥٥) النبراس، لابن دحية، ١١٢.

(٥٦) الوزراء، للصابي، ٢٢٣.

(٥٧) عريب: صلة تاريخ الطبري، ٨٤.

(٥٨) الفهرست لابن النديم، ٩٧.

(٥٩) تاريخ الخلفاء، السيوطي، ٢٩٣.

(٦٠) البلدان، لابن الفقيه، ١١٨.